بقايا الفصاح

الأستاذ شفيق جبري

أعود إلى موضوع : بقايا الفصاح ، وكلما عدتُ إلى هـذا الموضوع تبين لي فيه وجه جديد ، فإذا كنت أرى في بعض هذه الألفاظ التي تشيع على ألسن العامة أصلًا فصيحاً فإني أرى فيها وجهاً آخر ، ولست أدري أكنت مصيباً في هذا الرأي أم كنت مخطئاً ، إني أرى أن لغة العامة قبل العصور التي انحدر فيها الأدب كانت أقرب من اللغة الفصحى وقد يكون السبب في هذا القرب بُعد الأعاجم عن ديارنا ، فلمّا وقع الاختلاط بالأعاجم انحدرت لغة العامة بعض الشيء وبقيت في هذا الانحدار بقايا من الفصاح لا نزال نسمعها إلى يومنا هذا ، وكيف كان الأمر فإن هذا رأي من الآراء يجوز فيه الأخذ والردّ .

من هذه البقايا مادة : وَرِش ، فكثيراً ما نسمع في لغة العامّة ، ولا سيّما لغة السّيدات : هذا الصبي ورش ، وهم يريدون بذلك أنه كثير الحركة ، كثير الضجة ، كثير اللعب ، إذا وقعت يده على شيء أخذه وربما كسره أو عطله أو ما يشبه ذلك . وما سمعت أن هذه المادة تطلق على الكبار ، ولكنهم يطلقونها على الصغار ، ولا سيما الصبيان . وإني لفي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يومٍ من أيام مطالعاتي خطر ببالي هذا المثل « بعلّة الوَرَشان يأكل رُطَبَ المُشان » ، ويضرب على نحو ما هو مدوّن في المعجمات لمن يظهر شيئاً والمراد منه شيء آخر ، فأحببت أن أعرف ما هو هذا الوَرَشان وإذا هو على نحو ما جاء في القاموس المحيط طائر لحمه أخف من الحمام ، وفي أثناء تفتيشي عن معنى الورشان مررت بمشتقات هذه المادة ، وفي جملتها : الورِش ككتف ، النشيط ، الخفيف من الإبل وغيرها ، وهي بهاء ، فالصبي ورش والبنت ورشة . فنحن نرى أن الورش التي عاشت على ألسن العامة أصلها فصيح ، وأن بين المعنى العامي والمعنى الفصيح تقارباً ، فالصبي الورش الذي تكثر حركاته وتكثر ضجاته ويكثر لعبه بكل ما تمتد إليه يده إنما هو خفيف بطبعه ، نشيط . وإذا كانت المفردات التي تعرب عن هذا المعنى كثيرة في اللغة فإني أعتقد أن مادة الورش التي استفاضت في لغة العامة لا تعدلها مادة ثانية في قوتها .

وما دمنا نعرض لطائفة من صفات الصبيان فلا بأس أن نذكر مادة ثانية يستعملونها في مخاطبة الصبيان ، فإن المرأة إذا أرادت أن تزجر طفلها عند تناول شيء مضرّ أو أن تزجره عند إفساد شيء أو كسر شيء قالت له : كخ ! ماذا نجد في القاموس المحيط ، إنا نجد : كخ كخ ، وتشدّد الخاء فيهما وتنوّن وتفتح الكاف وتكسر ، واختارت العامة كسر الكاف وتشديد الخاء ، يقال هذا عند زجر الصبي عند تناول شيء وعند التقذر من شيء ، ولم يذكر الفيروزابادي أصل هذه المادة ، أهي عربية أم هي أعجمية ، وقد قيل فيها إنها عربية ، وقيل إنها فارسية ، وصرح ابن الأثير وغيره من أهل الغريب بأنها غير عربية . هذا ما جاء في شرح ديباجة القاموس ، وقد قرأت في موضع من المواضع أن هذه المادّة تقولها العجم ، وأن العرب يقولون مادّة ثانية على وزن : قد ، ولكني نسيت هذه المادة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا كانوا يستعملون : كخ كخ عند زجر الصبي عند تناول شيء وعند التقذر من شيء فإنهم عند تعليل الصبي بنقش يلوحون له به يقولون : دَحْ . ففي اللغة : داح ، نقش يلوّح للصبيان يعلّلون به ، إلا أن العامة حذفت الألف من داح وقالت : دحّ ، بتشديد الحـــاء جرياً على عادتها في التسهيل .

ولننتقل الآن من لغة الصبيان إلى عمل آخر لا يبعد عنه الصبيان . أذكر أني لما كنت في وزارة المعارف من أربعين سنة زارتني سيدة أميركية وأخذت تثني على إمام المحدثين في الشام المرحوم الشيخ بدر الدين الحسني ، وكانت معجبة بوقاره ونور وجهه . قلت لها : ما الذي جاء بك إلى سورية ؟ قالت : إني مختصة بالخطوط الشرقيـة ، فحسبت أن الأمر جدّ فقلت لها : هل تكتبين لي خطاً بيدك ؟ فأمسكت بالقلم وكتبت على ورقة وأعطتني الورقة ، فدققت في الورقة فلم أفهم شيئاً ، فأطلعت عليها المرحوم الأمير جعفر الحسني ، مدير دار الآثار وقلت له : ما هذا الخط ؟ فحسب مثلي أن الأمر جد ، فنظر قليلاً ثم قال : هذا ما نسميه خربشة الجاج ، أي الدجاج ، والعامة تحذف الدال على سبيل التخفيف ، فبقيت في ذهني لفظة الخربشة فرجعت إلى القاموس المحيط فوجدت في اللغة : خربش الكتاب أفسده ، فالخربشة فصيحة ، وهي أدلّ مادة على هـذا النوع من الخط الذي لا هو عربي ولا هو أعجمي ، فالخربشة عبارة عن خطوط تلقى على ورقة ولا تدل على شيء ، فإذا كانت : دَحّ وإذا كانت : كخ كخ من لغة مخاطبة الصبيان فإن الخربشة من عمل هؤلاء الصبيان .

وما علينا بعد هذا إذا عرضنا لبعض الملابس . من الألفاظ الشائعة في لغة العامة : الشاشية . إنهم يريدون بها خرقة يغطون بها إبريقاً أو كأساً أو شيئاً آخر ، أو يريدون بها ما يُلف على الرأس ، فالمادة شائعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كثيراً في لغة العامة وهي من بقايا الفصاح وحسبنا أن نجدها في شعر البحتري ، في هجائه الحارثي :

مرّ بنا الدامر يختال في شاشية شوهـــاء مغبرّه

فلا شك في أن الشاشية في هذا المقام ضرب من الملابس ، وقد تكون من النوع الذي يلفّونه عن الرأس ، وكيف كان الأمر فالمادّة فصيحة .

وأخيراً فلنبحث عن تصرّف العامة في معاني بعض الألفاظ الفصيحة . نجد في اللغة أن معنى : سنح لي رأي : عرض ، إلاّ أن العامة تخطت هذا المعنى في مخاطباتها وخلقت لهذه اللفظة معنى آخر ، فإذا أسرف أحد في المطالبة بشيء أو إذا أفحش في بعض كلامه أو إذا جاوز الحدّ في أمرٍ من الأمور قالوا : اسنحوه أي لا تبالوا به ، أهملوه ، فالمعنى العامي اختلف كثيراً عن المعنى الفصيح ؛ وهكذا تجد أن العامة تستعمل حريتها في التصرف في معاني الألفاظ الفصيحة .

أفلا نرى أن لغة العامّة تقرب كل يوم من اللغة الفصحى باستعمالها بقايا الفصاح التي لصقت بأذهانها من سنين طويلة أو باطلاعها على ما تمرّ به من الألفاظ الفصيحة في الصحف ودور الإذاعة ، وأن من الواجب أن نعمل على الزيادة في إصلاح لغة العامة بالأساليب المختلفة حتى يأتي اليوم الذي تكون فيه المسافة بين اللغتين ، الفصحى والعامة ، قريبة جداً . وعلى هذا الشكل لانفسد هذه اللغة الشريفة التي أورثتنا إياها أحقـــاب بعيدة وصقلت هذا الميراث الكريم عصور مديدة .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net